الإنتشار والتفاعل الثقافي

الدكتورة/نهى حمدان سعيد أحمد

قسم معلم الصفوف الأولية

كلية التربية– جامعة حائل

خلاصة البحث

الانتشار الثقافي:

لعل حقيقة التغير السريع في حياتنا الحديثة هي أكثر ظواهر حياتنا الجديدة وضوحاً وشمولاً وأجدرها بالاهتمام فإذا كان هناك شيء يميز عصرنا الحاضر نستطيع أن نقول سرعة التغير الثقافي حتى أن الأشياء التي يحاول الناس الإبقاء عليها دون تغير يصيبها سواء رغبوا في ذلك أم لم يرغبوا, وأصبح من الضروري مواجهة التغير على الرغم من مقاومته أحياناً, ذلك أن عوامل التغير وما يتصل بها من ظروف الحياة الحديثة تلقى مطالب كثيرة مختلفة الأبعاد، وهذا يحتم عليهم التفكير في الوسائل الممكنة وابتكار الوسائل الجديدة التي يمكن مواجهة التغير بها

ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نلاحظ الثقافة بصورة مباشرة؛ لأنها مأخوذة ومستخلصة من مواقف وسلوك الإنسان الجماعي ومستنبطة من المناهج والمعايير والقوالب الفكرية لأفراد الجماعة، ومن هنا يتضح لنا أهمية تحديد النمط الثقافي الذي يعبر عن السلوك الفردي لأي شخص.

وفي بحثنا هذا تم تناول : مصطلح التغير الثقافي الخارجي ،والانتشار الثقافي ،والتثاقف والاتصال الثقافي، من عمليات الانتشار الثقافي، والتفاعل الثقافي، والاستعارة الثقافية ،وآليات الانتشار الثقافي و أنماط الاتصال الثقافي ،والنقد الموجه لنظرية الانتشارالثقافي.

والله ولي التوفيق.

د. نهى حمدان

مقدمة

ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نلاحظ الثقافة بصورة مباشرة لأنها تتمثل لدينا في صورة مجردة مأخوذة ومستخلصة من مواقف وسلوك الإنسان الجماعي ومستنبطة من المناهج والمعايير والقوالب الفكرية لأفراد الجماعة. ومن هناك يتضح لنا أهمية تحديد النمط الثقافي الذي يعبر عن السلوك الفردي لأي شخص. وفي بحثنا هذا سوف نتطرق لتحديد مصطلح الانتشار الثقافي والتثاقف والاتصال الثقافي والتفاعل الثقافي والاستعارة الثقافية وآليات الانتشار الثقافي والنقد الموجه لنظرية الانتشار الثقافي.

والله ولي التوفيق

التغير الثقافي الخارجي:

هذا النوع من التغير الثقافي ينتج عن مجموعة من العمليات الثقافية الأخرى التي لا تستمد أصولها من المجتمع الأصلي وإنما هي تفد إليه من خارجه, ومن أمثلة هذه العمليات الاتصال الثقافي Cont.act والتثاقف. وكذلك الاستعارة والانتشار الثقافي والتفاعل الثقافي وعبر بعض الباحثين من أن التثاقف هي عملية تغير من خلال اتصال ثقافي كامل ويتضمن هذا المصطلح أيضاً عملية الاستعارة الثقافية Cultural Borrowing.

ويمكن إجمال هذه العملية تحت فئتين تضم هذه الأنواع وهي عملية الانتشار الثقافي والتثاقف والاتصال الثقافي والاستعارة الثقافية.

الانتشار: Diffusion

يشير تعريف الانتشار للعمليات التي تنتج تماثلاً ثقافياً بين مجتمعات متباينة, كما أن معظم التغيرات الثقافية التي تحدث في جميع المجتمعات الإنسانية المعروفة, تتطور من خلال الانتشار. وتتم عملية الانتشار بين مجتمع وآخر فقط, وإنما قد تحدث داخل المجتمع الواحد بانتشار الخصائص الثقافية من جماعة لأخرى. فعلى سبيل المثال نجد أن السود في الولايات المتحدة الأمريكية هم أول من اشتهروا بموسيقى الجاز (Jazz), وما لبثت أن انتقلت لمجموعات أمريكية أخرى ثم انتشرت أخيراً في مجتمعات غير أمريكية.

ويعتبر الانتشار عملية انتقائية, إذ تقبل جماعة إنسانية بعض الخصائص الثقافية لجماعة أخرى مجاورة لها بينما ترفض البعض الآخر. تقبل مثلاً بعض الأطعمة الهندية بينما ترفض عقائدهم. وكذلك يشتمل على بعض عمليات التطور أو التعديلات للعناصر الثقافية التي تتم استعارتها, علماً بأن التعديلات قد تحدث خلال عملية الانتشار, إما في عنصر أو في العناصر الثلاثة وهي: الشكل, والوظيفة, والمعنى لكل سمة من السمات الثقافية ولا يمكن أن تعد التجديدات تغيراً ثقافياً إذا ظلت مقتصرة على عدد قليل نسبياً من المجددين ومن العناصر النشيطة, وإنما لا بد أن تلقي قبولاً اجتماعياً عن طريق انتشارها بين أغلبية أفراد الجماعة التي ندرسها, وقد يحدث الانتشار الثقافي بشكل أفقي (عندما تنتقل العناصر الثقافية من من منطقة إلى أخرى أو من ثقافة إلى أخرى), كما قد يحدث بشكل

رأسي (عندما تنتقل العناصر الثقافية من مستوى أعلى إلى مستوى أسفل من مستويات السلم الاجتماعي أو العكس).

ويلاحظ بعض الدارسين أن عملية انتشار أحد العناصر الثقافية الجديدة لا تتم لمجرد الاقتناع العقلي الرشيد والتبرير المنطقي السليم لجدوى العنصر الجديد وضرورته, ولكنها يمكن أن تتم كذلك بفضل المكانة الرفيعة والسمعة الطيبة والوزن الكبير الذي يحظى به رسل التجديد داخل الجماعة وسواء كانوا مبتكرين له ابتكاراً أو مجرد ناقلين ووسطاء. (1) د. محمد الجوهري, علم الاجتماع وقضايا التنمية في العالم الثالث.

والانتشار كما أشار إلى ذلك رالف لنتن R.LINTON وهرسكوفيتس HERSKOVITS هو الأخذ بالخصائص الحضرية, وهي كل الظواهر التي تنتج عندما يدخل مجموعة من الأفراد لهم ثقافات مختلفة في صلات مباشرة أو مستمرة وما يترتب على ذلك من تغيرات في الأنماط الثقافية الأصلية للمجموعتين أو لواحدة منها. (2) محمد عاطف غيث, ص44.

والانتشار الثقافي بالنسبة للمجتمع الصناعي طبيعة مختلفة عن الانتشار في المجتمعات الأخرى – فهو إما انتشار من هذا المجتمع إلى الخارج, أو انتشار من مراكز الصناعة والفكر إلى الأجزاء الأخرى في المجتمع نفسه, فهو إذن لا يكون انتشاراً نتيجة لتقابل ثقافتين مختلفتين. (3) محمد عاطف غيث, ص54.

- نشأة نظرية الانتشار: كما يوضح ذلك كروبر KROEBER (في كتابه التغير الاجتماعي) يشير بالانتشار إلى العملية التي بواسطتها تنتشر بها عناصر أو انساق الثقافة والتي ينتقل بها اختراع جديد أو نظام جديد من مكانه الأصلي إلى المناطق المجاورة وفي بعض الحالات في المناطق الملاصقة لها حتى تنتشر تدريجياً في العالم كله. (4) سناء الخولي, 63.

وقد نشأت نظرية الانتشار كبديل لنظرية التطور. وهي تقوم على أساس فكرة المراكز الثقافية المسيطرة أو السائدة والتي حولت فيما بعد إلى نظرية في التغير الاجتماعي عند (م. أليوت سميث).

ومن أجل تقديم الدليل على صدق نظريته فقد حاول أن يحدد وجود كثير من أوجه التشابه الثقافي بين المصريين القدماء ومجتمعات بعيدة عنهم في الزمان والمكان مثل سكان (انيكاس) في بيرو وشعوب الهند والمكسيك, فهو يؤكد وباقتناع أن الشص (العظمة المعقوفة لصيد السمك) الموجودة في ميلانيزيا كان أساسها رمح من البرونز طوره المصريون. (5) سناء الخولي, ص64.

ويرى (جورج مبرودوك أن حوالي 90% من كل ثقافة عرفها التاريخ المعروف اكتسبت عناصرها من شعوب أخرى (نفس المرجع السابق) ويمدنا رالف لينتون).

يوصف كلاسيكي لهذه النقطة محاولاً معرفة الأصول التي أتت منها الأشياء التي يستخدمها الأمريكي اليوم ومن بينها (عندما يتناول الطعام فهو يستخدم أطباقاً اخترعت في الصين وسكينا من جنوب الهند وشوكه من إيطاليا, وملعقة مأخوذة من المجتمع الروماني, والبرتقال من شرق البحر المتوسط والبن من الحبشة... والسجائر من المكسيك, والجريدة التي يقرأها طبعت بحروف اخترعت في ألمانيا, وبعد كل ذلك فإنه إذا كان مواطناً محافظاً فإنه يشكر الإله بلغة هندية أوروبية على أنه أمريكي مائة في المائة). (1) LINTON RALPH, PP326-327.

- ويرى بدروجرز أن العناصر الحاسمة في عملية الانتشار هي:

1- التجديد 2- الذي ينتقل من خلال قنوات 3- على مر الزمن 4- بين أعضاء نسق اجتماعي.

وسرعة الانتشار تحددها عدة عوامل منها ما يتعلق بصفات التجديدات كالآتي:

1- الفائدة النسبية: وتشير إلى الدرجة التي يظهر من خلالها التجديد متفوقاً على هذه الأفكار أو المنتجات الأخرى وتتأكد هذه الدرجة من خلال مصطلحات الكفاية والتكاليف والجدة أو الفوائد المدركة.

2- الانسجام: ويشير إلى الدرجة التي يظهر فيها التجديد متمشياً مع القيم السائدة والخبرات الماضية, والاحتياجات المستقبلية فمثلاً صياد الأسكيمو يمكن أن يدرك بصورة مباشرة مدى تفوق السلاح الصلب على السكين التي يستعملها ولكنه غير متأكد تماماً من المزايا

المزعومة للمسيحية بالنسبة لعقيدته هو, وشبيه بذلك أيضاً نظرة الريفيين في مجتمعنا إلى طرق تنظيم الأسرة باعتبارها لا تنسجم مع التقاليد والمعتقدات السائدة.

3- التعقيد: ويشير إلى مدى رؤية أن التجديد يكون صعباً نسبياً من حيث فهمه أو استخدامه, وسرعة تبني أي تجديد تكون أبطأ عندما يفهمه أعضاء نسق اجتماعي على أنه شيء معقد.

4- القدرة على المحاولة: وهي الدرجة التي يمكن بها تجريب التجديد على أساس محدود. فيكمن تجربة أشياء معينة على نطاق صغير وهناك اختراعات معينة مثل السيارة أو التلفزيون تم قبولها كما هي. حيث أنها تمتاز بسرعة التبني بمجرد تجربة نموذج واحد منها, وذلك لسرعة إدراك الفوائد. (2) الخولي, ص66-67.

5- القدرة على الملاحظة: أي مدى ظهور نتائج التجديد للآخرين.

ومن خلال تتبع آثار السمات الثقافية عبر التاريخ, لاحظ الباحثون أن انتشار الثقافة لا يقتصر حدوثه على الجماعات الأقل تحضراً, بل يحدث بين المجتمعات بغض النظر عن درجة تحضرها, كما قد يكون الانتشار مباشراً أو غير مباشر, ويحدث الانتشار المباشر عندما يتم الاحتكاك المادي الحقيقي بين الأشخاص والجماعات احتكاكاً مادياً فعلياً.

ويوضح هذا الشكل الانتشاري عمليات الهجرة أو الاستعمار والاحتكاك من خلال التجارة والبعثات التبشيرية.

أما الانتشار غير المباشر فيحدث دون وجود اتصال فعلي مادي بين الأشخاص أو الجماعات, إذ يتم عن طريق وسائل الإعلام كالمذياع, والتلفاز, والسينما, والصحافة, والمجلات, والسلع المنقولة. (1) التغير الاجتماعي والثقافي دلال ملحس, ص87-89.

وأصبح مفهوم الانتشار المخطط مفهوماً له أهميته في التغير الاجتماعي المخطط وفي مجال التحديث والنمو الاقتصادي. (2) الخولي, ص71.

يقول الدكتور إبراهيم ناصر في كتابة علم الاجتماع التربوي في الانتشار الثقافي: إن الثقافة تنتشر من مكان لآخر وتأخذ شكل الاستيعاب أو التمثل Assimilation أي أن الثقافة تؤخذ من مكان لتحل مكاناً آخر وتأخذ دوراً أساسياً في الثقافة المنقولة إليها.

- ويميز معظم علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا بين ثلاث عمليات منفصلة للانتشار هي:

1- الانتشار الأولى: وهو يحدث من خلال الهجرة, وأوضح مثال على هذه العملية التغيرات التي حدثت في الثقافة الأمريكية جراء هجرة أعداد كبيرة من الأفراد للولايات المتحدة الأمريكية مع بداية القرن العشرين.

2- الانتشار الثانوي: تشتمل هذه العملية على النقل المباشر لعنصر أو أكثر من عناصر الثقافة المادية كنقل التكنولوجيا من العالم المتقدم إلى العالم النامي.

3- انتشار الأفكار: قد تحدث هذه دون هجرة مباشرة, أو نقل لعناصر تقنية, إلا أنها تحدث تغيرات ثقافية كبيرة. ومن أمثلة انتشار الأفكار, الدعوة للحرية, والمساواة وحقوق الانسان, وما تنادي به الثورات الاجتماعية والسياسية من آراء وفلسفات تأثرت بها مجتمعات كثيرة.

من عمليات الانتشار الثقافي:

تتم عملية الانتشار الثقافي بواسطة "محركات" أو وسائل كالتجارة والحروب والتزاوج والآداب وتبادل الآثار العلمية والجامعات ووسائل الاتصال الفكرية إلى غيرها من الوسائل التي تنقل السمات أو الأنماط الثقافية في داخل المجتمع الواحد أو من مجتمع لآخر. وتحتوي هذه الظاهرة على ثلاث عمليات:

1- نقل العنصر أو العناصر الثقافية من مكان لآخر.

2- قبول هذا العنصر بواسطة جماعة أو مجتمع آخر.

3- توافق العنصر أو العناصر المنقولة والمقبولة مع عناصر الثقافة السائدة في تلك الجماعة أو في ذلك المجتمع.

- ويلاحظ أنه عندما تحتك ثقافتان مختلفتان تحدث العمليات التالية:

أ- تميل الأنماط الثقافية المتجانسة إلى أن تمر بسرعة من ثقافة لاخرى.

ب- يميل النمط الأبسط والأكثر ضرورة إلى أن يمر بسرعة أكبر.

ت- إذا كانت إحدى هاتين الثقافتين أكثر تقدماً Superior عن الأخرى فإن التيار الثقافي الذي يمر من المستوى الأعلى إلى الأقل مرتبة يكون قوياً, كما تنتقل أيضاً نتائج الثقافة الأكثر تقدماً إلى الثقافة الأخرى في صورتها النهائية.

ث- لا تجد العناصر الثقافية غير المتجانسة للثقافتين سهولة كبيرة للاندماج أو التدخل.

ج- تصطدم القيم الأكثر تناقضاً للثقافتين بالأخرى ومن ثم تتصارع فإذا لم تكن ذات قوة متكافئة فسوف تصعف إحداهما الأخرى كما تصاب أيضاً القيم الغالبة ببعض مظاهر التحول.

ح- تندمج القيم, وبخاصة المحايدة منها (Neutral) ولكن لا يحدث ذلك بنفس السهولة والتي تندمج القيم المتجانسة.

خ- يظهر في أثناء الظروف المواتية لتصادم القيم المتناقضة أو اندماج القيم المحايدة الاختراع الذي يعمل على تذويب مظاهر الصراع وتأكيد النمط الجديد المخترع أكثر ذيوعاً وانتشاراً من الثقافة اللامادية.

ولا بد من الإشارة إلى أن التطور التقني المذهل في مجالات الانتقال والاتصال الإعلامية باستخدام الأقمار الصناعية يجعل العالم أشبه بقرية الكترونية, ويضعف من مصداقية الزعم بالانتشار الثقافي القائم على المراكز الثقافية إذ تدخل وسائل الاتصال الحديثة كعامل قوي التأثير في عملية الانتشار الثقافي.

التفاعل الثقافي من عمليات الانتشار الثقافي::

أي أن أبناء الثقافتين الذين يدخلون في علاقة تفاعل. وفي أثناء عملية التثقيف –يؤثرون في بعضهم البعض- وإن كان من الضروري والمنطقي أن يكون تأثر الجانب النامي أقوى واشد من تأثر الجانب المتقدم (محمد الجوهري, ص112).

وبذلك يحصل التغير الثقافي ويمكن أن يتم أفقياً أو رأسياً أفقياً بين العديد من الثقافات نتيجة اتصالها, ويتم رأسياً عن تأثير بعض الطبقات الاجتماعية على الأدنى أو العكس.

وكثيراً ما تتلاقى خطوط التثقيف واتجاهاته في نفس الوقت, فتحدث حركة التغيير بشكل رأسي وبشكل أفقي في وقت واحد, وتتقاطع مع بعضها البعض. (المرجع السابق)

فالتفاعل الثقافي يكون بين ثقافتين بغض النظر عن درجة تأثر كل منها في عمليات التفاعل الثقافي الناتج عن الاتصال الثقافي بينهما.

(محمد عاطف غيث, 58)

ونظراً لسعة مجال الانتشار الثقافي وتعدد آلياته فقد وجدت مدارس مختلفة في أنحاء العالم ويمكن أن نقول أن هناك ثلاث مدارس انتشارية:

1- المدرسة الهليوليثية Heliolithic (الانجليزية): بزعامة اليوت سميث E.Smith وبري Perry وترى أن مصر هي الأصل الذي انبثقت عنه الحضارة ومنها انتشرت إلى كل أجزاء العالم, ويذهب بري في كتابه "بناء الشمس" إلى أن مركب السمات Complex of traits نبع من مصر أولاً ثم انتشر إلى باقي مجتمعات العالم, وهناك عناصر إضافية في هذا المركب مثل التحنيط Mummification وبناء الأهرام والقيمة العالية التي ألصقها الفراعنة بالذهب واللؤلؤ, فيذهب أنصار هذه المدرسة عموماً أن الاستعارة هي الوسيلة الوحيدة التي يتحقق عن طريقها التغير الثقافي, ولذلك فهم ينكرون روح الاختراع في الجنس البشري ويتفاضلون أن السمات التي تنشأ مستقلة.

2- المدرسة الألمانية والنمساوية Germans School:

ويتزعمها جرابنر Graebnr وفوي E.foy وتطالب هذه المدرسة بضرورة فهم معنى الحياة البدائية كما يعيشها البدائيون أنفسهم وكما عاشها الأسلاف من قبل, حيث ترى أنه يجب أن نعود إلى مبدأ التعاطف النفسي حيث يضع الباحث نفسه في الحالة النفسية التي يعايشها المبحوث بقصد إعادة بناء الثقافة الأولى Reconstruction التي تتمثل في الراقات الثقافية Cultural Strata والتي تقدم مفاتيح إعادة البناء التاريخي للاتصالات التي تمت بين ثقافات اليوم.

3- المدرسة الأمريكية American School

بزعامة بواس F.Boas وجولدن ويزر Golden Weiser والعالم السويدي سكويلد N.Skiold والعالم الدنماركي سميث B.Smith. حيث ترى هذه المدرسة انتشار المواد والعناصر الثقافية يمر في ثلاثة أطوار:

أولاً: أن يعرض العنصر الثقافي فترة من الوقت للتأثير Exposure قبل تقبله.

الثاني: أن يستقر في بيئته الثقافية الجديدة Establishment.

الثالث: أن ينتشر.

ثم يرى بعد ذلك أن العناصر الثقافية الجديدة تفد إلى الجماعة من خارجها وسرعان ما تندمج في حياتها وتتكامل مع النسق الثقافي السائد.

ويعتقد عدد كبير من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا والاقتصاد أن الثقافة المادية والحضارية أكثر ذيوعاً وانتشاراً من الثقافة اللامادية وأكثر تكبيراً وإسراعاً وذيوعاً.

- ميكانزمات انتشار الثقافة وطريقة انتشارها:

مكانزمات انتشار الثقافة متعددة منها الهجرة والاستعمار والارساليات والتجارة, ويمتاز عصرنا الحاضر بسرعة الانتشار الثقافي, فقد ساعد على ذلك ارتقاء وسائل المواصلات العادية التي كانت سبباً في تسير الاتصال الفكري والروحي بين شعوب العالم والتقريب بين وجهات نظرها, وتنتشر الثقافة عادة عن طريقتين:

أ- طريق عرضي اتفاقي:

وفيه يتم انتشار الثقافة عن طريق الهجرات التي يقوم بها الأشخاص فيتركون بلادهم بفعل عوامل الضغط الاجتماعي أو عوامل الطرد المادي حاملين معهم الأنماط الثقافية السائدة في بلادهم فإذا لاءمت هذه الأنماط الثقافية الوسط الذي هاجروا إليه انتقلت هذه الأنماط إلى ثقافة هذا الوسط الأخير أو الجديد.

ب- طريق شعوري معتمد:

وفيه يتم انتشار الثقافات عن طريق الهجرات الاستعمارية أو التجارية التي تهدف من خلال فرض ثقافتها إلى استغلال الشعوب المستعمرة, حيث يلعب عامل التحكم الجغرافي دوراً هاماً في انتشار الثقافة مثل السلالات البشرية التي تتخذ في هجرتها وحركتها الطريق الأقل مقاومة حاملة معها ثقافاتها التي تتشابك مع ثقافة الشعوب المهاجرة إليها الأصلية أو تحل محلها أو تسيطر عليها, وكذلك هجرات الشعوب وانتصار بعضها على البعض الآخر, ولاحظ الكثير أن المناطق المعزولة جغرافياً ذات ثقافات جامدة.

التثقيف (الاتصال الثقافي) والتثاقف.

التغير الثقافي يمكن أن يصدر عن دوافع داخلية تنشأ من داخل الثقافة نفسها, وفي هذه الحالة نصف ذلك بأنه (تنشئة ثقافية) أو تثقيف من الداخل, كما أن التغير الثقافي يمكن أن يصدر عن دوافع ومؤثرات خارجية, أي وافدة من ثقافة أجنبية (عموماً ثقافة مغايرة لثقافة الجماعة), وهي الحالة التي نصفها بأنها (تثقيف من الخارج) Acculturation أو (اتصال ثقافي) والذي يحدث في أثناء عملية التثقيف من الخارج أن تتبنى الثقافة بعض العناصر الثقافية الوافدة أو تقلد بعض العناصر الثقافية الموجودة في ثقافات أجنبية عنها, وذلك من خلال عملية (الانتشار) أي انتشار النماذج أو العناصر الثقافية من مكانها الأصلي إلى المكان الذي تفد إليه, ومن الممكن أن تكون تلك العناصر الوافدة من القوة والشمول بحيث تحدث تغيرات جذرية أو شاملة في الثقافة الجديدة.

وتنتمي تلك المظاهر والعناصر إلى القطاع المادي كما تنتمي إلى القطاع غير المادي من الثقافة, ومن عناصر القطاع المادي الآلات والمنشآت والتجهيزات الصناعية, ومن غير المادي أشكال التنظيم السياسي والاقتصادي والانساق الفكرية والتقسيم بين المادي وغير المادي تقسيم مصطنع لتيسير البحث العلمي, لأن الثقافة كيان واحد متكامل تربط أجزاءه علاقات تفاعل كثيفة لا تسمح بهذا الفصل إلا نظرياً فقط. (الجوهري, 110-111).

- الاتصال الثقافي: هو تلك العملية التي تنتقل بواسطتها الرسالة أو الفكرة أو الاختراع من المرسل (المصدر) حتى تصل إلى المستقبل, ويمكن توضيحها عن طريق نموذج S.M.C.R وفي هذا النموذج يقوم (S) المصدر (Source) بإرسال (M) رسالة (Message) عبر (C) قنوات اتصال معينة (Channels) إلى (R) الفرد المستقبل (Receiver) ويمكن التعبير عن هذه العملية بهذا الشكل:

Message
Receiver ..... Effects.....Channels.....Source

(ملحس, ص51)

التثاقف والاتصال الثقافي:

التثاقف: هو عملية التغير من خلال الاتصال الثقافي الكامل, ويقصد بالاتصال الثقافي هنا: الاتصال بين ثقافتين والذي يؤدي إلى زيادة أوجه التشابه بينهما في معظم الميادين الثقافية وكان بأول (Powell) أول من استخدم هذا المصطلح في عام 1880م للإشارة إلى الاستعارة الثقافية.

ويقدم كارل مانهايم (K.Mannheim, 1942) مفهوماً جديداً في عملية التغير الاجتماعي وهذا المفهوم هو الاحتكاك الخصب (الاتصال الفائق) (Fresh Contact) شارحاً إياه بأنه علاقة متغيرة في النظر إلى الموضوع تتضمن النظرة الجديدة في تمثيل وتطوير واستخدام البدائل الثقافية والبدائل المادية في هذه الحالة. ويترتب على هذا اللون من ألوان الاحتكاك أن يغير الشباب من طرق الحياة السائدة ويثوروا على القيم الاجتماعية المسيطرة, ويبتكروا البدائل الثقافية الجديدة والفريدة ويتحرروا من الانصياع للثقافة التي تمليها عليهم التزامات العصر وبذلك كله يحدث التغير الاجتماعي والثقافي. (ملحس, 52). وغاية القول أن الاتصال هو عملية حيوية لإحداث التغير الاجتماعي. "وطبيعة هذا التغير الناجم عن انتشار الأفكار الجديدة تتوقف على النسق الاجتماعي نفسه, ولعل مثال غيل الماء" في قرية لوس مولينوس بيرو وتوضح لنا ذلك وتلقي الضوء على مراحل التغير الاجتماعي وتتمثل في أ- الاختراع ب- الانتشار ج- النتائج.

- إذن فالتثاقف هو:

عملية التغير من خلال الاتصال الثقافي الكامل, أي اتصال بين ثقافتين يؤدي إلى زيادة أوجه التشابه بينهما في معظم الميادين الثقافية. ويتضمن هذا المصطلح أيضاً عملية الاستعارة الثقافية, وكذلك يشير مصطلح التجديد إلى العملية التي تؤدي إلى قبول عنصر ثقافي جديد (د. دلال ملحس, 78).

الاستعارة الثقافية (Cultural Borrowing)

نوعاً من أنواع التجديد الثقافي الذي يعتمد على الاتصال بين المجتمعات من خلال أساليب متعددة كالحروب والزواج, وطلب العلم, والمؤسسات التعليمية كالجامعات, ووسائل الاعلام

المرئية والقروءة والمسموعة. ونتيجة الاتصال الثقافي يستعير المجتمع نمطاً ثقافياً كاملاً أو جزءاً من كل ثقافي. وعندما تحدث الاستعارة الثقافية فإنها لا تشمل بالضرورة الشكل والمضمون معاً للعنصر الثقافي المستعار, كما أن السمة المستعارة تخضع لمفاهيم المجتمع المستعير الذي قد يغير في الشكل أو المضمون, أو في الإثنين كليهما, وعلى صعيد آخر, قد تفضي الاستعارة الثقافية إلى إحداث أفعال مضادة تؤدي بدورها إلى إحداث تغيرات اجتماعية جديدة, لذلك إذا قلنا أن التغير الناجم عن الاتصال الثقافي غير قابل للارتداد, فذلك لا يعني أن الثقافة التي استعارها مجتمع ما, سوف تدفع به نحو مزيد من التشابه الثقافي مع المجتمع مصدر السمة الثقافية المستعارة (المرجع السابق, 89).

ويعرف (هيروسكوفيتس) –أول من استخدم مصطلح التثاقف – بـ "الظواهر التي تنجم عندما يحدث اتصال مباشر ويستمر بين جماعات من الأفراد ذوي ثقافات مختلفة مع حدوث تغير في الأنماط الثقافية لإحدى الثقافتين أو لهما معاً" ويؤكد بيلز إلى أن نمط التغير الناجم عن الاتصال بينهما أياً كانت طبيعة هذا الاتصال أو مدته, وقد عرف (رالف لنتون وروبرت ردفيلد) التثاقف بأنه: "التغير الثقافي في تلك الظواهر التي تنشأ حين تدخل جماعة من الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافتين مختلفتين في اتصال مباشر. مما يترتب عليه حدوث تغير في الأنماط الثقافية الأصلية السائدة في إحدى الجماعتين أو فيهما معاً.

وعرفه (رادكليف براون) بأنه: "تغير الحياة الاجتماعية بفعل تأثر أو سيطرة الغزاة الفاتحين الأوروبيين, وخاصة في القارة الأفريقية وقد ارتبط هذا الدور بالبغي الأوروبي (الاستعمار), وشكل معه وسيلة أساسية للسيطرة على الشعوب الأوروبية, إذ أن هناك فارقاً كبيراً بين (Acculturation) (Transchulturation) فالأخيرة تعني تبادلاً متساوياً, أما الأولى فتعني عملية نقل لثقافة معينة بل تفرضها".

إن عملية التثاقف لا تتم في جانب واحد من الثقافتين المتصلتين ببعضهما, فعلاقات التفاعل متبادلة بين الثقافتين , ولكن تعصب المجتمعات الصناعية جعل باحثيها يصورون أن العلاقة ليست تبادلية, حيث يؤكدون على أن ثقافتهم المتقدمة تعطي ولا تأخذ, لكن الأبحاث المحايدة بينت خطأ هذه التصورات, حيث بينت أن الكثير من العناصر الثقافية في

المجتمعات المتقدمة استعيرت من الشعوب النامية, فأخذت أمريكا الكثير من العناصر الهنود الحمر مثل استعمال السجاد والصوف والفضة, كما أخذوا من الأفارقة موسيقى الجاز.

عمليات التثاقف:

يرى بليز وهويجبران أن هناك من المتغيرات والعمليات الكبرى تنطوي عليها ظاهرة التثاقف, يمكن تحديدها على النحو التالي:

1- درجة التباين الثقافي: إن درجة اختلاف الثقافات المتصلة فيما يتعلق بالأيدولوجيا والقيم والبناء الاجتماعي والتكنولوجيا وما إلى ذلك تؤدي دوراً هاماً في عملية التثاقف.

2- ظروف الاتصال وكثافته: إذ أن الاتصال يكون عدائياً أو ودياً وقد ينطوي على اتصال مكثف, أو يكون في ظروف استعمارية, ونتيجة لذلك يتنوع التثاقف ويتباين.

3- مواقف السيادة والتبعية: قد تكون الثقافة متكافئة, وقد تأخذ إحداها وضع التبعية للأخرى نظراً لاستخدام القهر أو الضغوط الاقتصادية أو للتفوق التكنولوجي.

4- عملاء الاتصال: هل القائمين بالاتصال ذوو مكانة اجتماعية مرتفعة أم منخفضة؟ (المصلحون, التجار, الموظفون الحكوميون) لا شك أن هذه المتغيرات تعتمد على العنصر السابق (التبعية والسيطرة).

5- اتجاه المد التأثيري: إلى أي مدى يتخذ تدفق التجديدات طريقاً واحداً؟ أم يتم بطريقة تبادلية؟ لأنه وبهذا المد قد تحدث عمليات ثقافية عديدة, منها ما هو صحي, ومنها ما هو سئ, ومن هذه العمليات التكيف, التعويض, التوفيقية, التفكك الثقافي, الأصالة, الرفض..

نتائج التثاقف:

يترتب على المتغيرات والعمليات سالفة الذكر أشكال مختلفة من النتائج النهائية للتثاقف يمكن تحديدها في:

1- التوحد أو التمثيل: بحيث يستحيل التمييز بين الثقافتين, وبمرور الوقت تشكلان ثقافة واحدة, وهذه الظاهرة قليلة الحدوث في الجماعة, لكنها كثيرة الحدوث في الأفراد.

2- الاندماج: بحيث تفقد ثقافة معينة استقلالها, وتبقى قائمة كثقافة فرعية تشكل طبقة مغلقة, أو مجتمعاً..

3- الانقراض: تفقد الثقافة أفرادها بحيث لا تستطيع تأدية وظيفتها.

4- التكيف: يتحقق توازن بنائي – داخلي – جديد, وقد تكون الثقافة أحد أشكال ذلك بحيث تضاف بناءات جديدة دون فقدان البناءات القديمة.

صور الاتصال الثقافي:

يتخذ اتصال الجماعات الإنسانية بعضها ببعض صوراً كثيرة على مدى التاريخ, فلكل عصر ولكل مرحلة ثقافية وسائلها وأساليبها وغاياتها من هذا الاتصال, ومن هذه الصور ما يلي:

1- الاتصال عن طرق التزاوج: "وهو اتصال الجماعات الإنسانية في الحياة الأسرية بالتزاوج, وخاصة بين الشعوب البدائية التي انتشرت بينها عادة الزواج الخارجي.

2- الاتصال في المناشط الاقتصادية: وهو اتصال الجماعات في أنشطة الصيد وجمع الثمار والزراعة والتجارة.

3- الاتصال في الطقوس الدينية والتجمعات السحرية.

أنماط الاتصال الثقافي:

هناك خطان أساسيان لاتصال الأفراد والجماعات مع بعضها البعض هما:

1- الاتصال العضوي المباشر: هو النمط التاريخي التقليدي حيث كان ينتقل الانسان من مكان إلى مكان وتنقل معه ثقافته وبذلك يحدث التأثر والتأثير الثقافتين.

2- الاتصال غير المباشر: وهو اتصال غير مشخص يتم عن طريق منتجات الانسان المادية والفكرية, وهو سبيل الشعوب إلى الانتشار الثقافي اليوم.

أما فيما يتعلق بالاتصال العضوي المباشر, باعتباره الوسيلة التاريخية التي تمت عن طريقها التغيرات الكبرى في التاريخ الإنساني, فإنه ينبغي أن نذكر حدوداً لظروف ذلك الاتصال لأنها تعين على التصور القريب وعلى تحديد الصورة, ولذا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار معرفة المكان الذي تم فيه الاتصال الثقافي وزمانه, ثم الأسلوب الذي يتم فيه, وأخيراً غايته وهدفه ونتائجه.

ظروف الاتصال الثقافي:

1- مكان الاتصال: فالمكان الذي يتم فيه الاتصال الثقافي من العوامل المهمة في تكوين النتائج المترتبة على مثل ذلك الاتصال, من قبول أو رفض, وتكيف وضد التكيف, فقد ينشأ التماس الثقافي عن طريق البحار والشواطئ, وهذا ما حدث للإغريق والرومان قديماً, وما بين الشرق والغرب في العصور الحديثة حتى انتهى باكتشاف القارة الأمريكية. وهذا التماس الثقافي لا تنتج عنه الآثار المقيمة ولكنه قد يكون وسيلة لاستقرار دائم, على أن الاتصال قد يقوى بمرور الزمن, ويتخذ صورة دائمة فيأخذون ويعطون كما حدث في الشعوب القديمة كالفينيقيين والاغريق والرومان حيث تبادلوا مع الشعوب البحرية كثيراً من العناصر الثقافية.

وقد يكون التماس الثقافي عن طريق البر, وفي القرى أو المدن, أما الآثار المترتبة على مثل هذا الاتصال فهي متباينة فالتماس في المدن يحدث تغييرات مهمة كبيرة نظراً لانفتاح المدن ومرونة سكانها, أما في القرى فالمتغيرات محدودة نظراً لطابع المحافظة والتماسك الذي يمتاز به التنظيم الاجتماعي فيها مما يشكل عقبة أمام العناصر الثقافية الوافدة.

2- زمان الاتصال: أما زمان الاتصال فله دوره في تشكيل الصورة النهائية للتماس الثقافي فقد يكون التماس إما دائمياً, وعندها يسمى التماس الثقافي مشاركة واتحاداً, كما حدث في حالة الإقامة الدائمة للمهاجرين أو للمستعمرين في أمريكا الحديثة, وكما حدث للعرب خارج الجزيرة العربية في أفريقيا وآسيا, وقد يكون الاتصال مؤقتاً قصيراً لا يترتب عليه من النتائج الثقافية العملية الشئ الكثير.

أساليب الاتصال الثقافي:

يلعب أسلوب الاتصال بين الجماعات أو الثقافات المختلفة دوراً مهماً فيما يترتب عليه من نتائج ثقافية, وأهم هذه الأساليب ما يلي:

1- عن طريق الحرب: وهنا تحدث مقاومة ومعاداة للثقافة الغازية من قبل اتباع الثقافة المغزوة, ولكنه لا يمنع من تبادل العناصر الثقافية.

2- عن طريق السلم: بواسطة التجارة والمبشرين والفنيين وقد يكون هذا الاتصال جماعياً تمثيلياً من فئات مختلفة, وقد يكون فردياً عن طريق الرواد والمغامرين.

أهداف الاتصال الثقافي:

يرى العالم الأنثروبولجي مونييه Maunier أن الهدف أو الغاية من الاتصال الثقافي بصورة عامة يعود إلى عاملين: فإما أن يكون الهدف اقتصادياً, وإما يكون دينياً, وفي رأيه أن هذين الهدفين التبادل التجاري والتبشير بالمسيحية هما وراء اتصال الشعوب الجديدة بالشعوب القديمة.

لو أننا وسعنا المفهوم الاقتصادي, وقلنا أن عملية الاستعمار في صورتها الفنية الأخيرة منذ القرن التاسع عشر عملية اقتصادية, فإن ذلك يشمل الهدف السياسي والاستراتيجي.

المآخذ على نظرية الانتشار الثقافي:

إن نظرية الانتشار الثقافي رغم أهميتها, إلا أنها لا تخلو من النواقص التالية:

أولاً: إن التركيز على العامل الخارجي في عملية التغير الاجتماعي يلغي العوامل الداخلية التي تؤدي إلى التغير وإلغاء لفاعلية المجتمع وآليات التغير فيه. ويحرم المجتمع من الإبتكار والاكتشاف.

وهذا ينافي الحقيقة الواقعية, حيث أن القيم السائدة والأيدولوجيات وكل عناصر الثقافة تتفاعل وتؤدي إلى التغير.

ثانياً: إن عامل الإرادة في التغير يعد عاملاً مهماً في الوقت الذي يكون مهملاً لدى الانتشاريين.

ثالثاً: لم يفسر الانتشاريون كيف ولماذا تنتشر السمات الثقافية من مجتمع دون آخر وإلى مجتمع دون آخر؟ الأمر الذي كان مهملاً عندهم, كما أنهم لم يفسروا أسباب انتشار الثقافة.

ولم ينتبه الانتشاريون إلى أن عملية انتشر الثقافة, وهي عملية معقدة, في الوقت الذي ذهبوا فيه إلى أن الانتقال يكون ميكانيكياً, وفي ذلك تبسيط لعملية الانتقال والاستقبال الثقافي. كما أن النتائج التي توصلوا إليها لا تخدم نظرية عامة في التغير الثقافي.

(د. محمد الدقس, ص150)

المراجع

1- الأستاذة الدكتورة ملحس, دلال استيتية, 2004, التغير الاجتماعي والثقافي, ط1, دار وائل للنشر والتوزيع, عمان – الأردن.

2- الجوهري, محمد (1993), علم الاجتماع وقضايا التنمية في العالم الثالث, ط3, دار المعرفة الجامعية: الإسكندرية.

3- غيث, محمد عاطف (1968), التغير الاجتماعي والتخطيط, ط1, دار المعارف بمصر: الإسكندرية.

4- الخولي, سناء (1988) التغير الاجتماعي والتحديث, دار المعرفة الجامعية: مصر.

5- ناصر, إبراهيم والدكتورة دلال ملحس (1984) علم الاجتماع التربوي وجمعية عمال المطابع التعاونية: عمان.

6- الدقس, محمد (1996) التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق, ط2, دار مجدلاوي للنشر والتوزيع: عمان.

7- الرشدان, عبد الله (1999), علم اجتماع التربية, دار الشروق: عمان.

8- العبد, صلاح (1984), علم الاجتماع, دراسة نظرية وتطبيقية, دار المعرفة: الإسكندرية.

9- خضور, يوسف (1993), التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق, منشورات جامعة دمشق: دمشق.

10- Linton Raph. (1963); "The study of man: An Introduction", New York: Appleton.